

الكتاب الافرنسي على ان النفع اذا لم يحصل ممن بلغ الرشد فاحر به ان لا يحصل أصلا وحصول النفع الحقيقي من ثمرات أعمال الكتاب قد لا يكون في الثلاثين ولا في الاربعين من عمره ولذلك قيل اذا بلغ الثماني عشرين عاماً ولم يفخر فليس له افتخار

الجنون بالكتب

الغالب ان عشاق الكتب كعشاق الجمال أو هم أضل سبيلا ، قراهم هائنين خاملين لا يعون على شيء في الارض ولا يحفلون بعظائم الامور فضلا عن صغارها ، يحلون الكتب روحهم وراحهم وريحانهم ، بل فروضهم ونوافيهم وأحاديثهم وأشغالهم . وكل شيء اذا جاوز الحد انقلب الى الضد . وكذلك الحال بماشق الاسفار فر بما جاوز لنفسه السرقة ولكن سرقة الكتب بل وربما أفتى بحل ذلك لمن يستفتيه . ولقد قرأت فصلا لاحد كتاب الزرنجة فأثرت تأخيجه كما يلي : أقر أحد عشاق الكتب يوماً في انكثرا عن نفسه واسمه ديبدن (١٧٧٦ - ١٨٤٧) انه هم يوماً ان يسرق وحمد الله على ان خلا بنفسه في خزانة كتب ستراسبورغ ولم تحدثه نفسه بسرقة كتاب منها . وكان خطر على بال رجلين في انكثرا ان يطبعا لانفسهما خاصة كتاباً يكون آية في طبعه ووضه وصوره وورقه وتجليده ولم يطبعا منه غير نسختين . فما كان الا كلا ولا حتى حدثت أحدهما نفسه بان يذهب الى دار صاحبه ويستأثر دونه بالنسخة فيسرق بعض صورها حتى تكون نسخته هي التي يرجع اليها فراح في غياب صاحبه الى زوجه وطلب اليها ان تربه النسخة لغرض بداله فدفعته اليه وجعل يقابلها بمهماً بأمرها ثم استغفلها

فمزق بعض صمور الكتاب وجعلها في جيبه وانصرف فلما عاد صاحبه ارتاب في مجيء صاحبه وتلب أوراق الكتاب فرأى ما فعله فرفع عليه قضية حكمت له فيها جمعية الكتب بألفي جنيه تعويضاً .

وقد راودت أحد هؤلاء الغلاة يوماً نفسه ان يحرق مكتبته بعد ان زار مكتبة الدوك دومال ابن لوزفيليب أخدم ملوك فرنسا المتوفى سنة ١٨٩٧ اذ مزق الحد والطعم والغيرة احشاء ذلك الرجل . بيد ان العرق في محبة الكتب الحقيقي هو محب الآداب أيضاً وعضد المعارف فينتبط اذا ظفر غيره بكتب لم يسعد الحظ بمثلها ويأمل ان يكون من ورائها منم كبير للمطالعين والدارسين .

ومن غرائب هؤلاء العشاق غليوم بودي (١٤٦٧ - ١٥٤٠) قال إنه اغتم الفرصة يوم عرسه فربكته قبل ان يبني بعرسه ومع هذا رزق بنين وبنات وهو الذي يروى عنه ان خادمه جاءه يوماً وهو يلث فقال ان لسان اللبيب أخذ يندلع على البيت وكان امام كتبه بالطبع فاجابه قل لزوجي وهلا تعرف انني لا أتداخل في أمور المنزل .

وأغرب من هذا ما أجراه أدرين تورنيب من مشاهير اليونان واحد فلاسفة القرن السادس عشر (١٥١٢ - ١٥٦٥) فانه نسي يوم عرسه الذي يقضى عليه بان يجتمع في يومه بالناس . وكذلك كان من أمر فردريك مورل لجون من علماء فرنسا المشتغلين وكان يبحث في اخبار ليانيوس السفطائي اليوناني فجاءه رسول يقول له ان زوجته تريد ان تكلمه بضع كلمات وكان يحبها حباً جماً فقال له دعني الآن انظر هاتين الكلمتين لكن المهلة التي طلبها طالت واسبظرت فبعثت اليه برسول آخر قال له ان زوجك

كادت تقارق الحياة فحوقل وامتدح منها وردد بعض ما أثرها وسيرتها
الصالحة وعاد يفوص في بحر كتبه .

ومات القس كوجي (١٦٩٧ - ١٧٦٧) حزناً لانه أكره على بيع
كتبه . ويروى مثل ذلك عن سكاليجر العالم الطلياني المتوفى سنة ١٥٥٨
وبارو الفقيه الفرنسي المتوفى سنة ١٦٨١ فقد قال الاول إن رمت أن
نصاب بأعظم خطوب الارض فبع كتبك تلق الشقاء ومن رام أن يجمع على
رأسه ضروب البلايا صفقة واحدة فما عليه إلا أن يبيع كتبه . ورأى
يعقوب غويل (١٥٦٤) من مشاهير فرنسا مكتبته نهب أيدي الضياع
والسلب في فتنة عصابات الكاثوليك فمات يائساً يائساً . وحزن العالم الكتي
كولته دورافل الفرنسي حزناً ولا حزن يعقوب على يوسف لما رأى
كتب الابرشية تطفو على نهر السين وكان يقدر قيمتها حق قدرها لانه
رتبها وبوبها .

واضطرت الحاجة اللغوي برونك من ستراسبورغ (١٧٢٩-١٨٠٣)
أن يبيع جانباً من مكتبته واشتد حزنه عليها حتى كان اذا ذكر أمامه مؤلف
اقتناه وباعه في جملة ماأباعه تنحدر عبراته على خديه طوعاً كرهاً . واضطر
الامير كاميراتا في القرن التاسع عشر ان يبيع اسفاره في المزاد العلني ولم تكده
توزع على مبتاعها حتى انتحر بيده وقال بيدي لايد عمرو . ويقرب من
ذلك ما فعله الكونت لايدوير فانه توهم ان كتبه اتعبته فباعها فما هو الا
يوم وليلة حتى عاد يشترها ثانية بكل مرتخص وغال فاشبهه في حاله ولداً
مبذراً غادر بيت أبيه

وحدث ان أحد الاميركيين المستر بريان وهب إحدى المكاتب

مجاميع نفيسة من روايات نادرة فلم تمض أيام حتى عاد الى قيم المكتبة يطلب اليه ان يرى كتبه فاخذ يحدق بها ويصوب في جلودها ويصعد فظن القيم ان صاحبه ينوي ان يترجع ما وهب ولكن راح المسكين فانهج بعد يومين وعزاً عليه ان يفعل فعلته قبل ان يودع محبوباته قديماً ويرعى لمن ذمامهن . ومات المركيز شالابري في القرن التاسع عشر فانطأ مخفناً لكونه لم يتمكن من ابتاع نسخة من التوراة ثينة . قيل إنه كان في محفظة جعلت في جلدها أوراق مائة بأربعين الف فرنك فعثر عليها الكتيبي لما اشتراها من صاحبها فاعادها اليها . وقضى بترارك (١٣٠٤ - ١٢٧٤) في مجله ولما استبطأه أصحابه أطلوا عليه فوجدوه ميتاً والكتاب في حجره . وكذلك مات الصحافي ارمند برتين (١٨٠١ - ١٨٥٤) مدير جريدة الديبا وكان له مجاميع من أجل القنات والكنوز ذكروا انه مات بين كتبه عقيب وفاة حليلته فوجدوه ماسكاً بكتاب كانت هي تحبه في حياتها فجاءه الموت وهو على هذه الحال ومات المؤلف يعقوب برونه (١٧٨٠ - ١٨٦٧) وهو على كرسيه وبين كتبه بعد ان عمر طويل ولا شغل له غير الدرس والتبخر . وقضى الجماعة موبللي منذ نحو نصف قرن وكانت مكتبته تساوي مئة الف فرنك ولم يوجد عنده من الدراهم ما يكفي نفقات دفنه . ومن عشاق الكتب من سقطوا عن سلام مكاتبهم ففوضوا نجهم ومنهم ايرت (١٧٩١ - ١٨٣٤) من غلاة الكتب في درسد والمركيز مورانت (١٨٠٨ - ١٨٦٨) الاسباني وروفر وغيرهم . والمؤرخ الكاتب يودورمومان الالماني (١٨١٧ - ١٩٠٣) ذهب الى خزانه كتبه ذات يوم والشمعة بيده فصرى لحيبها الى لحيته البيضاء وقضى بعد شهر متأزراً

وأعجوبة المولعين بالاسفار انظرن ما كليايشي (١٦٣٣ - ١٧١٤) من مدينة فلورنسا فقد خدم لأول أمره في دكان فاكهانية وأخذ ينظر في الأوراق التي تصر بها الفاكهة فوقع في نفسه ان يتلم القراءة فاتصل بكتبي ولم يعدم من يدرسه ويعلمه وكان اذا ذكره قوة ما حفظ شيئاً ونسيه وحفظ من اسماء الكتب ومظانها حتى اصبح عبارة عن مكتبة سيارة ثم اتصل بالفرانديك كوسم الثالث وجعله قياً على كنبه ولم تكن هذه الكتب لتشفي مطامعه بل أخذ يطالع فهارس المكاتب الأوربية مطبوعها ومخطوطها ويسأل كبار العلماء السياح عن نوادرها حتى صار يعرف كل دقيق وجليل من أحوال الكتب وكانت له طريقة غريبة في المطالعة فاذا اخذ كتاباً لم يكن طالع من قبل ينظر في اسمه وفهرسته ومقدمته وتقدمته ويتصفح اوائل فصوله وبعد دقائق يقول لك رأيه في موضوع الكتاب والمصادر التي أخذ منها مؤلفه ولا ينسى ذلك على الدهر . ولم تكن له عناية بهندامه ونظام معيشته بل كان في ليله ونهاره مستغرقاً في أسفاره لا يخرج الا إلى مكتبته . وكان أعلى بيته واسفله ومدخله وحجره ونوافذه كلها ملاءى بالكتب . وهو غريب في دخوله حتى كان يأكل في الغالب بيضاً وخبزاً و ماء - والخبز والماء أكل العلماء كما قيل - ولطالما سرق له خدامه وخدام جيرانه دراهم من خزانه بقربه كان يضع فيها البيض والدرهم معاً وقد أراد البابا والمملك ان يتمثل بين ايديهما فتجاهل ما أمرا به وعاش على كسله احدى وثمانين سنة واوصى بمكتبته لبلده وكانت تبلغ ثلاثين الف مجلد وجعل لها مورداً تعيش به وما زالت معروفة به الى الآن .